يتحدى رأس الدولة!

من عادة الساسة والمستبدين أن يحرصوا كل الحرص على ضم العلماء الذين لا ضمير لهم في صفوفهم، حتى يجذبوا الناس إليهم، ويظهروا لهم أنهم على الحق، وأن العلماء في جنابهم يؤيدونهم ويقرونهم فيما يذهبون إليه من سياسات باطلة وأحكام جائرة.

وأمثال هؤلاء الذين صاروا مطية في ركاب الساسة، وحذاءً في أقدامهم يوجهونه حيث يريدون من مواطن الإفك والزيف والافتراء.! هؤلاء.. هم أحقر الناس وأشرهم وأخبثهم، لأنهم يخدعون الجماهير بما يُظهرون من العلم والتمسح بلباس الدين.. ويضلون الشعوب بما يعلنون من الورع المزيف والتقوى الخادعة.. وتأبى حقيقتهم السافلة إلا أن تُرضي أربابهم وسادتهم على حساب الحق والحقيقة، وتُعلي قولهم على قول الله ورسوله ! ولعل هذه العناصر اللعينة من علماء السوء، تكثر نماذجهم في عصرنا الحاضر، فنشاهد أحدهم يخاطب الناس مرتديًا عمامة الإسلام وعباءة شيخ الإسلام، وهو في حقيقته أفاك ضال مضل، يُحل الحرام ويحرم الحلال، ويحارب أهل الله، ويقف عقبة في وجه الحق وأهله، نصيرًا للباطل ومؤيدًا حزبه.

وإذا كان حكام هذا الزمان قد وجدوا الكثير من أمثال هؤلاء، فإن عبد الملك بن مروان قديمًا عمد في موقف مشابه إلى سيد التابعين (سعيد بن المسيب) ليضمه إلى حاشيته، ويجعل منه لسانًا من ألسنته، ليقنع الناس بما يريد، ويأطرهم على طاعته، ويلزمهم بأمره.. ورغم ذكاء عبد الملك ودهائه الفريد، إلا أنه لم يُحسن الاختيار والتقييم حينما عمد لابن المسيب، ظنًا منه

أنه يمكن أن يكون من أهل الدنيا، الراغبين فيها والطامعين في غرورها.! فيضعف أمام العطاء، ويسيل لعابه بما يمنحه من هبات وامتيازات، ويهرول نزولاً على رغبة الحاكمين الكبار.. ولكن.. كيف يمكن لسعيد أن يكون من أهل الدنيا، وهو التقي النقي العابد الزاهد الذي قال يومًا : (إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص.!)

وقال يوم أن دُعي إلى نيف وثلاثين ألف ليأخذها: (لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حتى ألقى الله تعالى فيحكم بيني وبينهم.؟!)

وإذا كان سعيد لا يُغريه والمال لا يطويه، فليكن أسلوب آخر، لعله يخضع به أو يلين.. لقد تقدم إليه عبد الملك يخطب ابنته لولده الوليد حين جعله وليًا للعهد، لكنه ﷺ رفض هذه المصاهرة وفر منها، حتى لا يركن وابنته إلى الدنيا وأهلها.. رفض هذا النسب لأعلى رتبة في الدولة، رأسها الكبير وحاكمها المطاع، لأنه الأبي العزيز الذي يُبغض مظاهر الجاه وكبرياء السلطان، رفضه وهو يعلم ما قد يجره الرفض عليه من عنت وإيذاء.. لكنه لم يكن ليخاف أو يضعف.. لأن العلم الذي حمله بين ضلوعه، علمَهُ أن لا يخاف غير الله سبحانه.. فكان يتحرك في قوة.. ويتكلم في عزة.. ويصدح بالحق في شموخ وإباء.. وانطلق سريعًا ليزوج فتاته من (أبي وداعة) مجرد طالب علم فقير.! فضّله وميزه على ولي عهد الخلافة وملك المستقبل.!

ولم يكن لعبد الملك أن يسكت على ما حدث، أو يستكين أمام هذا الرفض الذي يعد إهانة كبيرة لشخصه.. فجاءت ساعة المحنة ولحظة الابتلاء، التي صمد فيها سعيد صمود الجبال، فلم تخر عزيمته أو ينخلع فؤاده حتى ضرب أروع الأمثلة في الصبر والثبات الذي أذهل خصومه وأعيا قرائحهم.!

لقد رفض سعيد أن يُعلن البيعة للوليد وأخيه سليمان ولدي عبد الملك، لأنها في نظره لم تعد بيعة لخلافة راشدة بإجماع الأمة ورضاها، و إنما صارت ملكًا عضودًا يُجبر الناس عليه بالسيف، ولما أُبلغ عبد الملك برفضه وتعنته.. أمر واليه على المدينة أن يُرهبه على السيف، ويجلده خمسين جلدة، ويطوف به في أسواق المدينة.. و لما جاء الكتاب أسرع إليه بعضهم ليحذره من هذا الوعيد والهول الذي ينتظره، والذي قد يفضي بذهاب حياته، ويعرض عليه أمورًا أملاها عليه والي المدينة وخيره فيها، حتى يتجنبوا هذه الفتنة وهذا الصدام وهي: أن يسكت حينما يقرأ الوالي كتاب البيعة، فلا يقول نعم أو لا، أو أن يظل في بيته ولا يأتي المسجد حتى تنتهي البيعة، أو أن ينتقل من مكانه بالمسجد فلا يشهد شيئًا.. و انتظر الجميع جواب سعيد، عله يجيب واحدة من هذه الثلاث، ويرضى بها فيرحم نفسه ويوفر عليهم عناء التحدي وشطط المواجهة، ولكن سعيدًا يُصر على رفض كل الخيارات التي لا تمثل إلا حقيقة واحدة، وهي العجز والتحايل والتخاذل والهروب من الحق، فقال لمحدثه: إني أخشى أن أصمت فيظن الناس رضاي ببيعتكم، كما أنني لا أقدر على سماع الأذان ولا ألبيه، ولا أرضى لنفسي أن أنتقل من مكاني في المسجد خوفًا من مخلوق.!

ولم يجد والي المدينة أمام هذا الرفض العنيد العتيد إلا أن ينفذ أمر الخليفة، فجردوه من ثيابه وضربوه (٥٠) سوطًا، وطافوا به في أسواق المدينة، وقال له بعضهم جهلاً وشماتة واستهزاء: هذا مقام الخزي! فكان رده الحديدي على هذه الحماقة: بل من مقام الخزي فررنا.!

وتنتهي المحنة بانتصاره عليهم، بعد أن أعياهم صموده، ولم يزده التعذيب الا إصرارًا على مبادئه وتمسكًا برأيه.. ويشعر عبد الملك بالندم، فيقدم يومًا للمدينة، ويقف على باب المسجد، ويرسل رجلاً يدعو سعيد بن

المسيب، فذهب الرجل وقال له: إن أمير المؤمنين بالخارج يُريد رؤيتك، فقال سعيد: مالي إليه من حاجة، وما به حاجة إلي، فرجع الرسول وأخبر عبد الملك فقال له: قل له: إن أمير المؤمنين يريدك، فكرر سعيد قوله، ولما رأى الحرج باديًا على الرسول قال له: يابُني اذهب فإن كان يريد خيرًا فهو لك، وإن كان يريد شرًا فليقض ما هو قاض، ويرجع الرسول بالإجابة المحرجة، التي لم يجد عبدالملك حيالها إلا أن يصمت ويكظم غيظه، لأنه يعرف قدر الرجل ومقامه بين الناس، الذين لا يريد أن يرتكب فعلاً آخر يزيد من سخطهم عليه ..

كان سعيد ﷺ من أعلام التابعين الذين ضلعوا في العلم والفقه بأحكام الشريعة.. شهد له بذلك العارفون السابقون، فكان عبد الله بن عمر إذا سئل مسألة أُشكلت عليه يقول: سلوا سعيدًا فإنه جالس الصالحين..

وقال علي بن الحسن: سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار و أفقهم في زمانه، وقال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه

وقال مكحول: طفت الأرض فما وجدت أعلم منه.. وكان الأئمة الأربعة الكبار يتناولون فتاويه ويأخذون بأقواله.. لقد كانت معالم الإباء واضحة أصيلة في نفس سعيد، وهي التي لا يعيينا البحث عن أسبابها، حينما نعلم أنه ﷺ تلقى العلم من أفذاذ الصحابة و أبطال الإسلام الأُول.. فسمع من علي بن أبي طالب، و ابن عمر، و ابن عباس، و أبي الدرداء، و أبي هريرة وأم المؤمنين عائشة.. وهؤلاء كلهم ما كان لهم أن يعلموا العلم مجردًا مبتورًا، أو يلقنوه جافًا فاترًا، و إنما يلقنون في روع المتعلم، شمائل الفروسية، وما تضمه من عناصر الإباء والشمم، التي تؤهله ليكون عالمًا قائدًا في حياة الناس، يدفع عنهم أذى الدنيا، كما يدفع عنهم بهديه أذى الآخرة.

و أبى ﷺ أن تُطوي صفحة حياته، حتى يكتب نفسه في سجل المجاهدين، فقد كان المجاهد الذى لا يُقعده عجز أو مرض.. وكان إذا سمع

منادى الجهاد يحمل متاعه ويخرج وقد ذهبت إحدى عينيه.! فيقال له: "إنك عليل" فيرد قائلا: "استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنني القتال، كثّرت سواد المسلمين وحفظت المتاع".